الدارة

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد الخامس والعشرون (١٩٩٦ م ـ ١٤١٦ هـ)

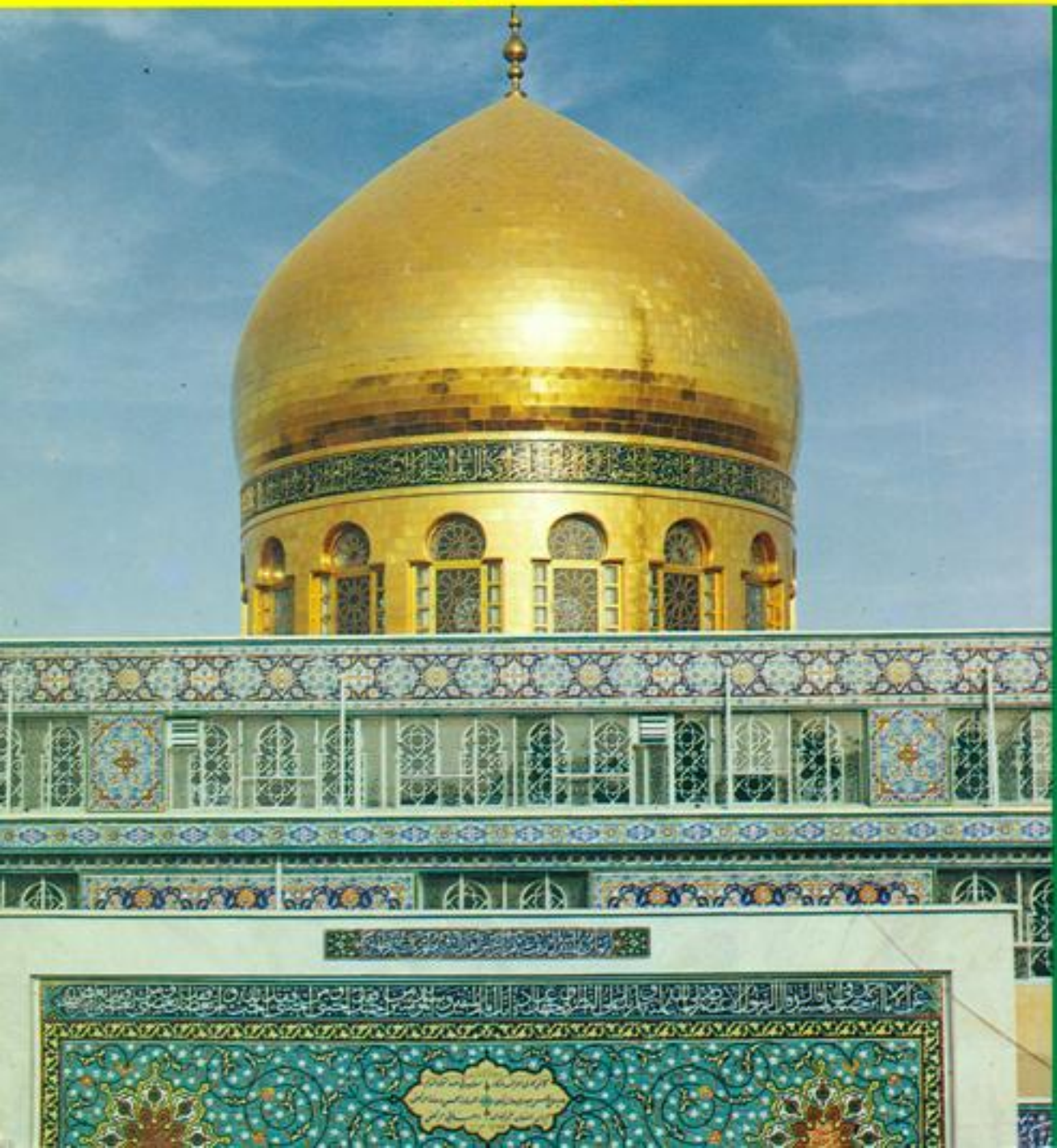

الموسم

مجلة فصليّة مصوّرة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمّد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

أكاديمية الكوفة

هولنده

المركز الوثائقي لتراث أهل البيت عليهم السلام

المراسلات
KUFA ACADEMY
POSTBUS 1113
3260 AC OUD - BEYERLAND
NEDERLAND
FAX : 0031186616306

ISSN 1384 - 2773

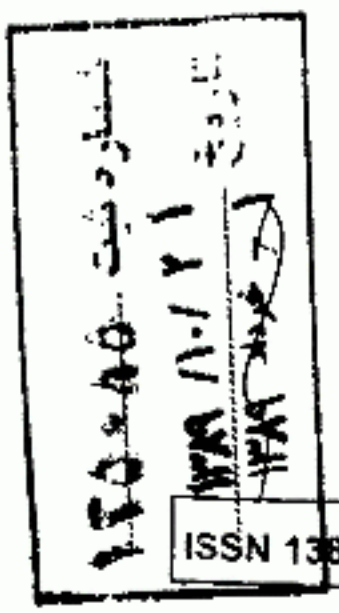

المكتبة الملكية (هولندا - لاهاي)

في رحاب السيّدة زينب عليها السلام

الشيخ عبد الله الخنيزي

قد لا يعدم الباحث في منعطفات التأريخ، المنقِّب بين الزوايا منه والسطور أنْ يقف ـ بين الفسَح مِنَ الأجيال ـ على قممٍ، تختلف ـ في ما بينها ـ شموخاً ورفعة وسمواً، بما حفلت به تلك القمّة من مزايا وخصائص، وماقدّمت في هذه الحياة، من سخيِّ البذْل، وجليل التضحية. ويكون هذا العطاء في جنبةٍ، من متعدِّد جنبات الحياة . . .

وتقلُّ تلك القمم عدداً، وتزداد الفسحة الزمنيّة بُعْداً وامتداداً، حتى لعلَّه يُمكن العثور على مَنْ طاولت تلك القمم، في شموخها، ورفعتها، وسموِّها، بما بلغته مِنْ تكاملٍ، وتجمَّعت فيها مِنْ صفات الخير، والحقِّ، والجمال، فلملمت كلَّ أطراف المجد والعظمة بيديها، ولم تبخل في عطاءٍ، أو تكسل في بذلٍ، ولم تأبه لنكرانٍ وجحودٍ، يُقابل بهما ما تُعطيه وتُضحّي به، في انسحاق إنيّةٍ، ونكران ذاتٍ، وذوبانٍ لأجل الغير . . .

وإذا لمسنا هذا الانحسار في جانب الرجل، فما أحرانا أنْ نُحبه بمرير الخيبة، واضمحلال الرجاء، إذا كان هذا الكدُّ والبحث عنِ القممِ النسويّة، التي كانت الصوى في هذه الحياة، ومحطّات الأمنِ والراحة، في موطن الخوف والقرِّ، ومجسج الظلِّ في لهيب الصحراء . . .

فقلّةٌ تكاد تُلحقها بالعدم، تلك القمم النسويّة بحيث تصل الغاية مِنَ التكاملِ، وتستطيع أنْ تُقيم التوافق التامَّ، بين العطاءين: الرجوليِّ في أداءٍ رساليٍّ تامٍّ، والأنثويِّ بما يتطلّبه مِنْ تنشئة جيلٍ، وبناء حياةٍ، ومدرسة بيتٍ، وواجب زوجٍ، وحفاظٍ على الخفر، والعفّة، والشرف، بما يفرضه مِنْ حجابٍ، يصون الكرامة، فيحميها عن ذئابٍ ترصد الفريسة، لتحيُّن الفرصة في شراسة انقضاضٍ، وخسّة اعتداءٍ . . .

ولسنا نعني تفضيلاً للرجلِ على نصفه الثاني، والجسد لا يعيش الحياة ويتنسّم منها الروح إلاّ برئتيه معاً، إذ متى تعطّلت إحداهما، فالعطب للثانية، على ترقّبٍ وثوبٍ . .

وإنما نعني: أنَّ واهب الحياة، وخالق الوجود، جعلت حكمته لكلِّ صنفٍ واجباتٍ في هذا الكون، ليصلح بذلك ما تتوقّف عليه استمراريّته، فيكون لكلٍّ عطاؤهُ الذي لا يُعوِّض عنه سواه، ولا يغني غناه!.

وليس يعني هذا أنْ لا يكون مِنْ بين النساء مَنْ فاقت إخوانها، بما تجمّعت فيها مِنْ مواهب وقدراتٍ، وتميّزت بما قدّمت مِنْ فداءٍ وعطاءٍ، وأنها تعدّت واجباتها الخاصّة بها، وبزّت الكثير مِنَ الرجال في واجباته. وفاقت عليه في خصائصه . .

ولكنها قلّةٌ قليلةٌ، فلانكاد نُبصر بين تلافيف التأريخ، ونعثر بين خباياه، إلاّ على العدد النزر . . ولكن كما تضاعفت عدد القمم الرجاليّة. في بيتٍ تميّز بتأريخ نصيع الحرف، مشرق الكلمة، لألاء السطور، رساليِّ الحياة، إيمانيِّ المبدأ، وحدويِّ العقيدة. لم يتدنّس بشرك

الوثنيّة. ولم يتلوّث بأوضار الجاهلية، حيث حافظ على الرسالة الإبراهيميّة الحنيفيّة البيضاء، فأقام مِنْ رجاله الحرّاس الفادين المضحّين في سبيلها، فلم يخمد لتلك الجذوة الإيمانيّة لهيبٌ، منذ أودع خليل الله ابنه وابنته تلك الأرض القفراء، والصحراء الجرداء، وهو على رسيخ الإيمان، وركين اليقين، بأنهما وديعة الخالق العظيم، وأنَّ ذلك سيكون نبتة الإيمان ـ هنا ـ حيث ستنمو منها الدوحة العقديّة، التي ستفيئُ ظلالها، وتُؤتي ثمارها، بعد أنْ يتمهَّد الأحفاد بعد الأولاد، في روعة تسلسلٍ، تصل الذّروة في دور الرسول الخاتم (ص)، ومَنْ يتسلسل مِنْ بيته الطاهر المطهَّر، في حمل العبء الرّساليّ، وتمثيل الدّور القياديّ، في أروع ما يصله الإنسان العقديُّ.

وهذه الخصيصة التي ميزّت هذا البيت، الذي كان المنار الهادي، يُرسل نيّر إشعاعته في فاحم الظلم الجاهلية، ويبدد محلولك قتام الفوضوية النكراء، التي تحياها القبائل العربية، وتمارس ـ تحت جنحها الممسود ـ أصناف الظلم والجور والفساد بأنواعه، حيث لا حكم إلا للغاب، ولا حياة إلا للقوي، ولا استرواح إلا للدم والسلب والغصب.

هذه الخصيصة التي كاد يحتكرها هذا البيت المشدود بربه، الذي لم تنحن منه هامة خضوع لصنم مهما كان نوعه، ورفض هذا الانحطاط الفكري، وارتفع بمستواه الإنساني، فمادان بعبودية لسوى المبدع الصناع، فهو أعظم مستوى من واطئ ذلك الإسفاف الكريه.

هذه الخصيصة، لم تكن حكراً على رجاله، على مدى تأريخه، فقد كانت له قمم نسائية، شاركت الرجال من هذا البيت، وفاقت الرجال من غيره... فكما تضاعفت قمم هذا البيت الرجالية، تضاعفت لديه القمم النسوية.

فالبيت الهاشمي زاخر بقممه الشماء، ومنه كانت تنبثق الإشعاعة الهادية، وتدل المدلج ليتلمس الدرب الذي يسلك، وكان في ماضيه المشرق ـ رجالاً ونساء ـ تأهيلاً وإرهاصاً بأن خاتمية الرسالات، سيحمل شرفها خلاصة هذا البيت الإيماني...

ومن الواقع الرهين، والدراسة المتعمقة، والبحث الفاحص، جاءت مثل هذه الكلمة حقيقة صارخة، حين خاطبهم من تعمق ودرس وفحص، فخرج بحتمي النتيجة: **رجالكم خير الرجال، ونساؤكم خير النساء، وشيوخكم خير الشيوخ، وكهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب.**

ومن هذا الواقع الصارخ، الذي يفرض نفسه، فاه عددهم التقليدي، الذي ورث كل ما يعنيه العداء الأموي للهاشمي، والعداء الجاهلي للإسلام، المتمثل في عداء أمية لهاشم، وعداء أبي سفيان لمحمد (ص)، فتجمع هذا كله في عداء معاوية لعلي (ع)، ولكن الواقع فرض على معاوية مثل هذه القولة، يعقب بها على حديث أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، بعد أن حاسبته على خصومته وعدائه لعلي (ع)، وفاخرته ببني هاشم، ودللت على تفضيلهم وتقدمهم على من سواهم، من الأمويين وغيرهم، فاعترضها ذوو الزلفى، كابن النابغة وابن الحكم، فانبرت لهما معيّرة الأول منهما بنسبه، مفحمة ثانيهما، فتفرض على معاوية أن

يقوه بهذه القولة:

«والله لو كلمها من في المجلس لأجابت كل واحد بغير ما تجيب به الآخر، وإن نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم»[1].

وإذا كان للإرث امتداد، حيث تمدّ الفروع شائج الأصول، بما فيها من عطاء وطاقة، فتحمل العناصر والخصائص، وإذا كان للتربية والبيت ذلك العمق، في ترسيخ مثل هذه المميزات وتثبيتها حتى تتجسد، وكأنها قد امتزجت من تلك الفلذات بالدم، وسرت في العروق، وتلتحم بالحياة نمواً وبروزاً...

إذا كان هذا وذاك، فإن من ربي في بيت القداسة والطهر، وتخرج من هذه المدرسة القيادية، قد وصل الذروة، وتمركز في الدائرة، فليس ببدع أن نجد هذه القمم الشوامخ في هذا البيت الكريم..

وأن لا تنحصر قممه في الأفذاذ من رجاله القياديين بل نجد فيه من القمم النسوية من لا تدانيها بنات جنسها، فتعطي سمة السيادة عليهن، سيادة تأبى الخضوع لعصر دون سواه، والانكماش في جيل دون غيره، وإنما هي سيادة عامة شاملة، فكما تعود للماضي في سحيق أغواره، تمتد شمولاً للحاضر إلى آخر من تخطو على اديم الأرض منها القدم...

وهكذا يسجل اللسان الرسالي، البلاغ الإلهي، في وسام يحفره التأريخ في طرّته، ويحفظه أمانة في عمق أعماقه: «**فاطمة سيدة نساء العالمين**» لتشمل سيادتها، سيادة أخواتها اللاتي حظين بوسام سيادة دون هذه السيادة، فتلك سيادة محدودة، لا تعدو نساء زمانها وعصرها، وهذه سيادة تفور منها الجذور في غابر الزمن، وتمتد إلى الحاضر منه والآت...

فإذا كانت مريم وأخت لها ـ أو أكثر ـ سيدة نساء عالمها، فالزهراء البضعة، سيدة نساء العالمين، فهي سيدة سيدات عالمهن...

ومن ربيت في هذا الحجر الطهور، وتحدرت من تلك الأصلاب المطهرة، وتخرجت من هذه المدرسة القيادية، وتجمعت فيها كل المؤهلات، التي تستقيها من ثر النبع، وتتلقاها عطاء من الأصل، الذي يجود بكل طاقاته للفرع، حتى يمتد سموقاً ونضارة...

من كانت كهذه، فلابد أن تبرز قمة، يرتد البصر حسيراً، دون إدراك ذلك العلو والشموخ...

وهذا ما سجله التأريخ، على الرغم من أنه قلّ ما انصف، وطالما أجحف، فلم يكن يزن ميزانه قسطاً، على مدار الزمن...

هذا ما سجله التأريخ للعقيلة زينب، في دورها القيادي المتمم للثورة الحسينية الخالدة،

---

(١) «شاعرات العرب» جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ منشورات المكتب الإسلامي ط١، عام ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

التي كانت السد المنيع، الذي تحطمت على صخرته الصلبة تلك الردة الأموية الجاهلية في زحفها الجموح...

فأحرى بنا أن نستنطق التأريخ وأن نفتش بين زواياه، فنزيل تلك الأكداس التي تراكمت على سطور مضيئة، فكادت تخفت منها الضوء وهي على إشراق، وأن تمحو الصورة وهي على ألق، وتمسح منها الخطوط وهي على انسجام، وتحيل الألوان وهي على تناسق...

ولن يعدم الباحث عن الحقيقة، وإن أضناه الكد وأجهده البحث والتنقيب، أن يعثر على مثل هذه السطور وهي على وهج، وأن يجد ضالته وإن طال به السرى...

وعصرنا الذي انحسرت فيه القيم، وانطمست فيه الأخلاق، منذ طغت الماديّات في ضراوة جشعها وشعار جوعها، التي أجهزت على المعنويات، فأنامت الضمير، إن لم تكن قد أماتته، وأخفتت منه النأمة...

هذا العصر الجاهلي المتعيلم، ما أقسى حاجته، إلى نفحات من الإيمان، وإلى قبس من هداية، وإلى صوى تشير له نحو لاحب الطريق، فتتجه مسيرته نحو الخير والحق والجمال، فلا تخشى عليه زلة قدم، ولا تيه ضلال...

ولن يكون ذلك إلا بعودة نحو المبدأ الأسمى، فتعاليم وقوانين الدين الخاتم تستقي من ثر نبعه وصافي زلاله، لتثلج الصدور اللاهثة، وتبرد الأكباد الحرى، وتشيع طمأنينة الإيمان بدل قلق الشك، وتقتلع بلادة الشرك، وتأخذ بيد القطيع التائه في صحراء الضلال، وهي على وقيد لهبة، وفاحل نبتة، إلى سجسج الظل، ووريف الأدواح...

ومن أبرز معالم هذه العودة أن نستنطق التأريخ ـ كما قلت ـ لنستضيء بتلك السطور، وهي على وهجها الوضاء، فنجعل منها ـ كما هي في واقعها ـ فلا نصدر إلا عن المنهج الذي جسدته حياة معاشة، فلم يكن ـ ثمة ـ نفار بين العنوان والمعنون، ولا خلاف بين الشكل والمحتوى، بل كانت هذه السطور التي تعرض صوراً، من حياة هذه القمم، هي أوضح ما يكون التجسيد الواقعي، والتطبيق الدقيق، لكل ما في المبدأ والعقيدة من ألق، وما فيهما من قيم، لا يطمع في التدني منها أي مبدأ، يحلم في التسامي والتعالي...

وحاجتنا لعرض هذه السطور أو هذه الصور في حقيقتها التي تأبى الزيف أن ينال من صافي جوهرها المصون، تشتد يوماً بعد يوم، وتلح علينا ساعة بعد أخرى...

والعصر المعاش ـ بما فيه من بهارج قد يكون لبعضه شيء من قيم المستوى ـ يطلب منا العرض في شكل جيد، يكون فيه من التجديد نصيب من حيث الصياغة والأسلوب والمقارنة، وما إلى ذلك مما يمس الشكل وحده، دون أن يجرأ على المضمون بتزييف...

وإذا كان لهذا الجانب الشكلي أثره في تأثير العرض، وبالتالي ينعكس هذا الأثر على المردود المرتجى منه العرض، فلعل العرض حينما يكون بأقلام شابة أخذت طريقها نحو النور، له مزيد انعكاس على هذا المردود ـ أيضاً ـ من جانب آخر... لأن حديث أفراد الجيل

لجيله، أدعى للتفهم، وأبعد في التأثير، وأرجى في الانسجام...

وليس هذا يعني نكران ما للجيل المتقادم من حنكة التجارب، وصقل المران، واستخلاص النتائج، مما عساه أن يكون عصياً على الأقلام الطرية، التي قد يجمح بها زهو الشباب وطراوة العود الذي لم يصلب بعد، فلا يمتنع على هبة ريح تميله، أو فكرة لها بريق مستعار يهيم بها، أو يلهث خلفها دون أن تناله المبتغى، لأنها لا تعدو كذوب السراب الخدوع...

ولا يعني هذا من جنبة أخرى حكماً عاماً وقاعدة لا تتخلف، ينسحب مضمونها على كل قلم شاب... حيث لانعدام الأقلام الطرية، التي ضمت إلى طراوة صباها حنكة شيوخ، في تجارب تأبى الحدود...

والكتاب الذي أضع هذه السطور، أمام القارىء الكريم، قبل أن يدلف باطنه يكتنه منه المعالم، كتاب يعرض جنبة من سطور حياة قمة من قممنا النسوية، التي كانت إحدى قطاف ذلك البيت الرسيخ الإيمان، الذي أخذ على نفسه هداية البشرية، وأهله القدر الإلهي العليم للدور القيادي، في تسلسل واستمرارية، تمتد بامتداد البشرية، وتساير الحياة إلى يومها الأخير في نهاية آناته...

ولست أريد ـ هنا ـ أن أتحدث عن هذه القمة، العقيلة زينب، التي فتحت عينيها في الحياة، وجدها وأبوها العظيمان يكسّران أصنام العبودية، في متباين صورها، وتحس بما كان جدها الرسول الخاتم (ص) يعانيه من ضراوة عداء الشرك، وما كان يفيضه على الكون من أضواء الهداية... ويمتد دور التلقي على يد أبيها المؤمن الأول، والنصير الفذ، والمضحي الأوحد، في سبيل هذه الرسالة... وهي ترتضع الكرامة والعزة وقوة الحق من أم كانت لأبيها أمه، فتسامت النبوة في البضعة الزهراء، وتعالت حتى بلغت ذروة الأمومة لتكون (أم أبيها)، في عطفها وشفقتها وحدبها على القائد الهادي (ص)، لتتوج منه (ص) بمثل هذا الوسام، ينضم إلى الكثير من أوسمتها، يقلدها إياها اللسان الرسالي الذي لا أثر للعاطفة عليه...

ولتستكمل العقيلة التلقي من أخوين هما الثمرة النضرة لهذا البيت الرسالي القائد، فيكونان السبطين الأمامين سيدي شباب أهل الجنة...

فالسيادة ـ وهي من نبع الإيمان ـ ذات شمول لهذا البيت الشامخ بعقيدته، وتضحيته في سبيلها فتنال هذه العقيلة من شرف التضحية والجهاد، في شجاعة قلب وعمق إيمان وفذ عطاء وصرخة حق.